متى نعود إلى الله تائبين ؟

لا أتحدث عن الآخرين، عن أولئك الذين نسمّيهم المفسدين والعصاة والفاسقين ، لا ، إني أتحدث عني وعنك وعنكِ ، متى نعود إلى الله ؟ نحن لا نشرب الخمر لكن لعلّ خمر تزكية النفس والمناداة عليها بالبراءة قد أسكرتنا ونحن لا ندري ، وهي من غير شكّ أخطر من عصير العنب.

هل أنت أحسن حالا من التجار الغشاشين ؟ وهل أنتِ أقوم قيلا من المنحرفات ؟ لقد عصمنا الله تعالى من الكبائر والمعاصي الحسية والحمد لله ، فكيف حال قلوبنا ؟ تركنا ظاهر الإثم فهل تركنا باطنه ؟ تُرى هل نحن متاحبّون في الله ؟ هل أحيينا معاني الأخوة في نفوسنا وعملنا بها في حياتنا ؟ هل نحسن الظن ببعضنا كما أُمرنا ؟ هل نحبّ لبعضنا من الخير والتوفيق والسموّ مثل ما نحبّ لأنفسنا ؟ هل تركنا التقاطع والتدابر والحسد فيما بيننا ؟

هل نُشفق على العاصي حتى يتوب أم أننا نلعنُه ونحن لا ندري لعلّه يبيت يبكي على ذنبه بينما نبيت مُدلّين فرحين بعبادتنا وكأننا ضمنا لأنفسنا القبول ؟

إني لا أتكلم عن الدروس "المسجدية" والخطب المنبرية والمواعظ الجميلة ، لا ، أقصد سلوكي أنا وأنت وأنتِ ، سلوكنا مع أزواجنا وأبنائنا بعيدا عن أعين الناس ، سلوكنا مع الجيران والزملاء والأقارب خاصة في حال التنازع وأوقات الانفعال ، سلوكنا إذا مارسنا النشاط السياسي والتجاري والنقابي ، سلوكنا في أماكن العمل مع ضغط الواقع ومتطلبات الحضور الفاعل والإتقان في كل أداء عضلي أو ذهني أو تنظيمي ، هل كانت الأخلاق الرفيعة معنا هناك ؟ هل التزمنا أحكام الشرع وخصال الأتقياء وآداب المؤمنين فيما بينهم ؟

نظرت في قلبي فخشيت أن ييبس إذا خلا من ذكر الله وأصابته حظوظ النفس وأصبح ملاذا للشهوات ، إذ هناك تمتنع الأركان عن الطاعة ، مثل الشجرة التي مُنعت الماء فيبست أعضاؤها ، فما أقبح هذا الوضع ، وهل من معنى لحياتي إذا فسد القلب ؟ فهل تعاني مثل معاناتي أيها الأخ المسلم ؟ وصحة القلب ليست في الادعاء – و لو كانت الأمور بالمزاعم لادعى الخليّ حرقة الشجيّ – ولكن في الصلة الدائمة المتجددة بالله تعالى ، ذكرا وأخلاقا وامتثالا للأمر وابتعادا عن النهي وإقبالا بعد إدبار واستغفارا وتضرعا وتوبة نصوحا ، و الله تعالى لا يغترّ بمظهر أو شكل أو طقوس ، لذلك " قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا فإن الناقد بصير " كما أوصى العارف بالله.

ما بال عيني جافة لا تتغرغر بدمع وما بال قلبي لا يتألم إلا قليلا رغم تقصيري في جنب الله ورغم قلة الزاد وطول السفر ؟ أجل ، المدرسة الحديثة أعطتني معلومات نافعة لكنها لم تعلّم قلبي الخشوع ولا عيني الدموع ، فيسّر ذلك سطو الدنيا عليّ واستسلامي لتبرّجها وزخرفها ، وإني لأنظر يمنة ويسرة أتحسس أصحاب القلوب الرقيقة والمُقَل الدامعة فأجدني غريبا غربة صالح في ثمود ، فهل تحسّ بذلك مثلي ؟ وما بال الدموع تسيل في غير محلّها على مطرب مات أو فريق فاز في مباراة أو أخفق ؟ إذا لم يخشع القلب لذكر الله ولم تنزل عَبرة من خشية الله ، ولا باتت عين ساهرة في سبيل الله فماذا بقي للدنيا من حلاوة ؟ إذا غاب القلب الخاشع والطرف الدامع فقد انتصرت العولمة واستعلى شأن المادة ولم يبق للدنيا المذمومة معارض.

فمتى العودة إلى الله تعالى ؟ المحراب بارد من حرارة الإيمان والصلاة لم تعدْ تنهى عن الفحشاء والمنكر إلا قليلا ، غلبت عليها الحركات والآلية بينما خمدت جذوة الاخلاص ، فمن أين يأتي التوفيق وكيف نثبت على طريق الاستقامة وكيف نستكمل السير إلى الله؟

كعْبتنا لا تتغير والطواف حولها لا ينقطع ، وما أكثر الحجيج والمعتمرين لكن البرودة أدركت الشعائر ، والتلبية يخالجها ريب والذكر تنحرف به الشهوات ، وكادت البقاع تفقد قداستها بما كسبت الأيدي ... وماذا أقول عن الصيام الذي طاش في أودية التقاليد والتلاوة المنمقة التي لا يقشعر لها بدن ولا ترفع الإيمان والصدقة الضعيفة والسير المتهاون ؟ هذا ما أشكوه إخوتي ولا أتخلص منه إلا بالعودة الصادقة.

إن العودة إلى الله تعني الانخراط في سلك الصابرين والشاكرين والظفَر بذخيرة هؤلاء وعُدة أولئك ، وتُحيي في النفوس المتعبة معاني الخوف والرجاء ، وتُخلّص المؤمنين من أسر الدنيا حتى تغدو في الأيادي لا في القلوب وحتى يتحكم فيها الربانيون ولا تتحكم فيهم ، وتغمرهم بأمداد من محبة الله والشوق إليه والأنس به والتقلب في أعطاف الرضا والتوكل واليقين.

ما أيسر الرجوع إلى الله تعالى بعد الشرود والاهتداء إلى صراطه بعد الضلال ، وما أصعب العقبة الكؤود التي يخوّفنا منها الشيطان لندبر ولا نقبل ، والسعيد من اقتحم العقبة والشقي من تهيّب وضعُف وتراجع ، الباب مفتوح بالليل والنهار فهل نبادر بالإقبال عليه والارتماء على أعتابه متضرعين نادمين ؟